قصص الرشيد



سجادة أبي الكاظم

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

— ١٢ —

سجادة أبي الكاظم

بقلم

ابراهيم عزوز

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة – القاهرة

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

دعا الخليفةُ هارونُ الرشيدُ وزيرَهُ جعفرًا البرمكيَّ ليَسْهَرَ معه فى قصرِهِ ، ويقضى معَهُ ليلةً سعيدةً فى الحديثِ والسمرِ .

وبعدَ ما انتهى مجلسُ الغناءِ والطربِ ، وتفرَّقَ المغنُّون والمغنياتُ ، استمرَّ جعفرٌ يقصُّ على الخليفةِ قِصَصًا مُسَلِّيَةً مُشَوِّقةً ، ليزيدَ سُرُورَه وبهجَتَه . وكان جعفرٌ يَعلمُ أنَّ الخَلِيفَةَ يُحِبُّ أخبارَ الكرماءِ ، ويفضلُ أن يسمعَ قِصَصَهم ونوادِرَهم .

فأَخذَ يتحدَّثُ عن كرمِ رَجُلٍ من سكانِ البَصْرة ، اسْمُهُ أَبو الكَاظِمِ البَصْرِىُّ ، وصار يبالغُ فِى وصْفِ كرمِهِ ، وَذِكرِ ثَرْوَتِهِ وغِنَاه ، حتى غارَ الخليفةُ من أبى الكاظمِ وظهَرَ الغيْظُ فى وجْهه وقال لجعفرٍ :

— أَظنُّكَ يا جعفرُ كاذبًا فى كلِّ ما قُلْتَ ، فليسَ من المعقولِ أن يكونَ فى الدُّنيا كلها رجلٌ بهذه الصفاتِ التى ذَكَرْتَها ، ولو كان البحرُ يتحوَّلُ فى يدِهِ إلى ذهبٍ جامدٍ ما استطَاعَ أن يكُونَ كَريمًا بهذِهِ الصورةِ التى وصفْتَه بها !!

ولما سَمِعَ جعفرٌ هذا الاتِّهامَ من الخليفةِ ، صَعُبَ عليه أن يَصِفَهُ بالكَذِبِ ، ونَسِىَ أنه يُخاطبُ الخليفةَ الأكبرَ فأجابَهَ فى حِدَّةٍ وعِناد :

— كَلاَّ يا مَوْلاىَ ! لسْتَ كاذِبًا !! ولولا مَقامُكَ السامِى لقلتُ : إنّه أغنىَ منكَ وأكرَمُ .

فاغتاظَ الخليفةُ هارونُ الرَّشيدُ ، وخرَجَ عن صوَابِه وشعُورِهِ ، وصاحَ منادِيًا الحاجبَ .

فلما حَضَرَ الحاجبُ قال له وهو يُشيرُ إلى جعفرٍ :

— خُذْ يا مسرُورُ هذا الكَلْبَ الوَقحَ ، وأدخله السجنَ

إلى الصباحِ ، وشَدِّدْ عليهِ الحراسةَ . وفى الصباحِ نقطَع رأسَه ونُعلِّقُه على بابِ المدينةِ ، ليكونَ عِظَةً وعِبْرَةً لكلِّ مَنْ يحاول أَنْ يرْفعَ صوْته ويقلّ أدبَه أمامَ الخليفةِ ، حتى لو كان وَزِيرًا .

تَعجّبَ مَسْرُورٌ مما سمِعَ أَشَدَّ العجبِ ؛ ولكنّهُ لم يَستَطِعْ أن يَرُدَّ على الخليفةِ بأَىّ كلمةٍ ؛ لأنه لاحَظَ الغضبَ الشديدَ فى وجْهِه . فوَضعَ القيْدَ فى يَدَىْ جعفرٍ وجَرَّهُ إلى السِّجْنِ .

وقام الرشيدُ من مَجْلِسه يَغْلِى ويَفُور ؛ كأنه البركانُ الثائِرُ ، ودَخلَ على إحدى زوجاته

وكانت هذه الزوجةُ عاقلةً ، واسعةَ الحيلةِ ، سَديدَةَ الرأىِ . تَعرِفُ دائمًا كيفَ تُزيلُ غضَبَ الرَّشيد ، وتُدخِلُ على نفسِه السرُورَ ، وتحمله على ترْكِ رأْيِهِ إذا كان مُخطئًا فيه .

فاستقبلته أحسن استقبال ، وأخذت تلاطفه وتسليه ، وتبتسم فى وجهه ، وتتقرب إليه ؛ حتى هدأت ثورته ، وزال غضبه ، وأخذ يقص عليها ما كان بينه وبين وزيره جعفر ، ويقول لها :

— وما كنت أحسب أن هذا الوزير الفارسى ، الذى أحسنت إليه كل الإحسان ، وقدمته على العرب كلهم وهم إخوتى وأبناء عمى ، وجعلت كلمته نافذة فى كل شىء — ما كنت أحسب أنه عدو خبيث ، وأنه يكرهنى ويغارمنى ومن كرمى .

فابتسمت الزوجة فى وجهه ، وأخذت تذكره بخدمات جعفر السابقة ، وخدمات أبيه يحيى . وتقول له :

— لقد كنت قاسيا على جعفر !! وإن جعفرا لا يستحق منك هذه الإهانة ، ولا يصح أن تختم حياته بهذه

الخاتمةِ الفظيعةِ وما هو إلا خادِمُك المخلصُ ، هو وأخوه وأبوه . ولو أنكَ فى الصباحِ أعطيتَه السيفَ ، وأمرتَه أن يقتلَ نفسه ما تأخرَ فى تنفيذ أمرِكَ وأظنُّه حينما ذكرَ لكَ قِصَّةَ أبى الكاظم كان يريد أن يَسُرَّكَ بذكرِ رجلٍ من رَعِيَّتِكَ ، غَنِىٍّ كريمٍ . فكأنه يقول لك : لَوْلا عدْلُكَ وكَرَمُكَ وكَثْرَةُ الخيرِ فى أيامِكَ يا مَوْلاىَ ، ما كان فى رَعِيَّتِكَ واحدٌ بهذه الصفاتِ .

فلما سَمِعَ الرَّشيدُ من زوجتِه هذا الكلامَ الجميلَ ، رَقَّ قلبُه لجعفرٍ ، وتذكَّرَ أيامَهُ السابقَة ، ولكنَّهُ أصرَّ على عنادِه وقال :

— أنا لا أُنكِرُ خدَماتِ جعفرٍ ، ولكنْ مَعَ ذلك لا بُدَّ مِنْ قتلِه فى الصباحِ ؛ لأنه أهانَنى بذكرِ أبى الكاظمِ على مَسْمَعٍ من خَدَمى وغِلْمانى .

فقالَتْ الزوجة :



لقد كنت قاسياً على جعفر

— أَرْجُو يا مَوْلايَ الخليفة أن تَتَمَهَّلَ فى تَنْفِيذِ حُكْمِكَ ، فإنَّ دِينَنَا يأمُرُنا بالعَدْلِ مَعَ الناسِ . وأَرَى أَنْ ترْسِلَ إلى البَصْرَة رَجُلاً أَمِينًا ، يكْشِفُ لكَ حَقِيقَة أبى الكاظِمِ البصرىّ . فإذا كان كرِيمًا كما وَصَفَهُ جَعْفَرٌ ، حرُمَ عَلَيْك أن تَقتُلَ جَعفرًا ؛ لأنَّكَ تكُونُ حينئذٍ قَاتِلَهُ ظُلمًا .

فَكَّرَ الرشيدُ كثيرًا حينما سَمِعَ كَلامَ زوجتِه ، وَتَذَكَّرَ أَوامِرَ الدِّين . ثم قال :

— صدَقْتِ ، وقُلتِ قَوْلا صائِبًا ، ولكن مِنْ أَيْنَ أَجِدُ الرَّجلَ الأَمِينَ الذى أطمئنُّ إلى صِدْقِه ؟

إنّ أىَّ رَجلٍ من رِجالِى يَعلمُ أنى غاضبٌ على جَعْفرٍ ، إذَا أَرْسَلْتُه إلى البصرةِ ، رَجَع إلىَّ بأَخْبارٍ تُكَذِّبُ جَعْفَرًا فيما قال ؛ ليُرْضِيَنى ويَنتَقِمَ مِنْ جعفرٍ ، ويَخْلوَ له الجوُّ منه .

فأرْتَكبُ جريمةَ القَتْلِ ظُلْمًا ، وأُسَاعِدُ أعداءَ جَعْفرٍ عليه ، ويكونُ عِقابى شَدِيدًا أَمَامَ اللهِ يومَ القيامةِ .

فسَكَتَت الزوجَةُ ؛ لأنها شَعرَتْ أنّ الرشيدَ بدأ يُغيِّرُ رأيَه ، وسكت الرشيدُ وهو يفكّرُ . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قال :

— وَجدْتُ الحلَّ المُوَفّقَ . . . الرأىُ عِنْدِى أَنْ أَذْهَبَ أَنا بِنفسى إلى البَصْرةِ ؛ لأَرَى بِعَيْنِى أبا الكاظِمِ البَصْرِىَّ ، وأعْرفَ أَخْبَارَه الحقيقيّةَ ، وإذا ظَهَرَ كَذِبُ جَعْفَرٍ فى شَىْءٍ مِنْ أَخْبَارِه ، كان قَتْلُه حَلالاً .

فلمَّا سمِعَتْ الزوجةُ هذا الرأْىَ وافقَتْ عَلَيْهِ ، وقالَتْ فى نَفْسها :

— لا شَكَّ أَنّ هَــذا السَّفَرَ سَيُتْعِبُ الخَليفةَ ويُضنيه . ولكنّه سَيُخَفِّفُ حِقْدَهُ على جَعفَرٍ ، ويُنْسيه غَضَبَهُ عليْه ، وبهذا يَنجو جعفَرٌ المِسْكِينُ مِنَ القَتْلِ .

وفى صباحِ اليوم التالى ، كان الخليفةُ هارونُ الرشيد يَلبسُ مَلابسَ تاجرٍ بغدادىٍّ ، ويَرْكَبُ بغلةً قويّةً ، ويسيرُ إلى البصرةِ .

ولما وصل إلى البصْرة ذَهبَ إلى خان (فندق) ، واستأجَرَ حُجْرةً وضَع فيها أمتعتَهُ ، كما استأجَرَ مكانًا لِبَغْلتِهِ . وصار يمشى فى طُرُق البصْرَة ، ويَتنقّلُ من مكان إلى مكانٍ . حتى شعَرَ بالتّعبِ ، فَجَلَسَ على مقعدٍ أمامَ دُكانِ حلاّقٍ ليَستريحَ . ودار بينَه وبَيْنَ الحلاّق حديثٌ طويلٌ ، انتهى بسؤالٍ من الرشيدِ عنْ منزِل أبى الكاظم ، فظَهرَتْ على وجهِ الحلاّق الدّهشَةُ وعلاماتُ الاستغرابِ ، وقال مُتعجِّبًا :

— أظُنُّكَ يا سيّدى لَستَ مِنْ هذِه الدُّنيا ؟ هلْ بَقِىَ

أَحَدٌ على وَجْهِ الأرض لمْ يَسْمَع بأبي الكاظم ، ولم يَعْرِفْ بَيْته ، ولَمْ يَنَلْ العَطَايا منه ؟ ؟ يا لَلعَجَب ! يا للدَّهْشَة !

فصَبرَ الخَليفةُ على سُخْرِيةِ الحَلاقِ منه ، ولم يُظهِرْ له نفسه ، وقال :

— صَدَقت يا سَيِّدِي ! إنِّي غريب . . لستُ مِن البَصْرة ، ولا مِن البلادِ القَريبةِ منها . وقد شغلتْني مَشَاغِلُ التِجارةِ عَنِ السؤال عَنِ الناسِ ، ومَعرِفةِ أخْبَارِهِم . ولَسْتُ مُحْتَاجًا إلى مَعونةِ أبي الكاظِم حتى أعرِفه أو أسْمعَ عنه . وهذه هي الأسْبَابُ التي جعلتْنِي لا أعْرفُ السيِّدَ العظِيمَ أبا الكاظم .

وأُحبُّ أنْ تُرْشِدَني إلى بَيْتِه ؛ لأعْرِفَه وأُصْلِح خطئي السابقَ بجَهْله .

فدَعا الحلاقُ غلامًا عِندَه ، وقال له خُذْ هذا السَّيِّدَ

التاجرَ ، واذهبْ به إلى دارِ سيِّدِنا أبي الكاظم البَصْرِيّ ليَعُودَ مِن عِندِهِ مجبورَ الخاطِرِ ، فائزاً بالهدايا والعطايا .

سَارَ الخليفةُ مع الغلامِ وهو يَقُولُ لنفسِه :

— عَجبًا ! أيكُونُ جعفرٌ صادِقاً في وصفِ هذا الرَّجلِ فَينجُوَ مِنْ قتلِي ، ويعُودَ إلى الجرأةِ عليَّ ؟ ! إنّ حديثَ هذا الحلاّق جعلني أُصدِّقُ جعفرًا قبلَ أنْ أرى أبا الكاظِم .

ولما وَصَلَ إلى قصْرِ أبي الكاظم ، لمْ يصدِّقْ عينَيْه لعظَمةِ القَصْرِ وفخَامَتِه ، وكَثْرَةِ الغلمانِ والخدَمِ الواقِفِينَ على بابه .

ورأى الناسَ يَدخُلونَ بدُون استئذانٍ ، ويَخرُجون ومَعهم الهدايا الغَالِيةُ ، والعطايا العظِيمةُ . وقد ظَهرَ السرُورُ على وُجُوهِهم .

فدخل مع الداخلينَ ، وسارَ حتى وَصَلَ إلى الحجْرَةِ التي يَجلِسُ فيها أبو الكاظم ؛ فرأى ما أدْهشَه وحيَّرَه . . .

كانت أرضُ الحجرةِ مفرُوشةً بسجّادٍ من الحرير ، وجُدرانها من الرُّخامِ النّادرِ ، وسقفها وشبابيكها من الأبنوس والعاج . أما مقاعدُها فكلُّها من الذهبِ الخالصِ ، المُطعمِ باليَاقوتِ واللّؤلؤِ والماسِ .

ومعَ ذلكَ كان أبو الكاظم يجلِسُ على سجّادةٍ صغيرةٍ من الحريرِ ، وسُلوكِ الذهبِ . ويترُكُ هذه المقاعدَ الفاخرةَ لضيُوفِه يجلسُونَ عليها ، مهما يكونوا فقراء . أو صِغارَ الشأن .



دخل الرَّشيدُ على أبي الكاظِم وسَلَّمَ عَليهِ . فلما رَآه أَبُو الكاظم عرَفَ مِن هيئته أَنَّهُ غريبٌ ، فوَقفَ لاستقبالهِ ، وسَلَّمَ عليهِ بكلِّ أَدَبٍ واحترام ، وأَخَذَه إلى حُجرةٍ أخرى ، أفخَم وأعظَم من الحُجرَةِ التي كان يَجلِسُ فيها وسأَلَه عن حالِه ، فأَخبرَه أنه تاجرٌ من بغدادَ ، ينزل فى خانٍ بالبَصرةِ . وقد جاء إلى أبِي الكاظم ليتشرَّفَ بلقائِه .

وما كاد يجلس معه ، حتى دخل الغلمانُ بالصَّوانِى الذهبيةِ ، وعليها كُلُّ أنواعِ الفواكهِ والحلوى ، فلما ذَاقَها الرشِيدُ ، أَحسَّ أنَّهُ لمْ يَذُقْ مِثلها مِنْ قبل ، فقال فى نفسهِ :

— آه ! بخوتَ يا جعفرُ . . بخوت ! !

ولمـا نالَ ما يَشتهى من الفَواكِه والحَلوى ، خرَج الغلمانُ ، ودخلَت الجوارِى تحمِلُ صوانىَ أُخرى منَ الياقُوتِ ، وعليها أَكوابٌ من الزُّمُرُّدِ والفيرُوز ، مَلأَى بأَنواعِ الشرابِ ، الذى تفُوحُ منه أَطيبُ الروائح .

فشَربَ الرشيدُ وشربَ . وكلما ذاقَ كوباً وَجدَ طَعمًا ورائحةً غيرَ ما وجدهُ أولاً . فصارَ يتعجّبُ ويقُولُ فى نفسه .

— أيكونُ فى رَعيَّتِى مَنْ يقدِرُ على شيءٍ لا أَقدِرُ أنا عليْه ، وأنا خليفةُ المسلمين ، ومَلِكُ بغْداد ؟! آه !!

نجَوْتَ يا جعفرُ مِن عِقابى ، وأَفلَتَّ مِنْ يدى !!

وَبينَما هو مشغولٌ بالشرابِ والتفكيرِ ، خرجَ أبو الكاظم ، وغابَ قليلاً ، ثم رَجَعَ وهو يُمسِكُ فى إحدى يدَيه قضيبًا من الذَّهبِ ، ويمسِكُ فى اليدِ الأخرى شجَرَةً صغيرةً عجيبةً . . .

سَاقُها منَ الذهَبِ ، وأوراقُها من الزُمُرُّدِ ، وثِمارُها منَ الياقوتِ ، وعليها طاوسٌ من الذهَبِ والجواهرِ النادِرَةِ .

ووَضعها أمامَ الرَّشيدِ ، ولَمسَ رَأْسَ الطاوسِ بقضيب الذهَبِ الذى فى يدهِ ، فنشَرَ الطاوسُ جناحَيْه ودارَ على إحْدَى رِجلَيْه بسُرعةٍ عظيمةٍ ، وتَفَتَّحتْ مِن جسمه ثقوبٌ صغيرة ، طارَ منها العطرُ الجميلُ ، فَمَلأَ الحجرةَ رائحةً ذَكِيَّةً ، حتى صارتْ كأَنها حُجرةٌ فى الجنَّةِ .

وتعلقتْ عينُ الرشيدِ بهذهِ الشجرةِ ، وشُغلَ بها عَنْ كُلِّ شيءٍ آخرَ .

فلما رآه أبو الكاظم مَشغولاً بها ، خطِفَها مِنْ أمامهِ وخرجَ بها مُسرِعًا .

وعِندئذٍ تنفسَ الرَّشيدُ نفسًا طويلاً مُريحًا ، وقال فى نَفسِه :

— اَلحمدُ للهِ ! اَلحمدُ لله ! لقَد كِدتُ أُصَدِّقُ جعفرًا ، وأعتقِدُ أَنّ أبا الكاظم أَغنى مِنّى وأَكرَمُ .

حَقًّا هو أغنى منّى ، ولكنه لا يُساوِينى فى الكَرَمِ ولو كُنتُ فى موْضِعه ، ما رفَعتُ الشَجَرةَ مِن أَمامِ ضَيْفى . بل كُنتُ أترُكُها ليُمتِّعَ عينيْه بها طُولَ مدّةِ إقامته ! ! الحمدُ للهِ ! الحمدُ للهِ ! كذَبَ جعفرٌ ، ووَجبَ قَتلُه .

وبَينَما هُوَ فى هذا التفكيرِ . دخلَ عَلَيْهِ أبو الكاظم ومعهُ غلامٌ جَميلٌ جدًّا ، يلبسُ حُلّةً منَ الحريرِ الأحمرِ مُقَصَّبةً بالذهَبِ ، ومُزَيَّنَةً بالجواهرِ ، وفى يَدِه كأسٌ مَصنُوعةٌ مِنْ قطعةٍ واحِدةٍ من الياقُوت ، وفيها شرَابٌ لذيذٌ ، وقدّمها للرشيد . وبالرّغمِ مِن أَنّ الرّشيد كان قَدْ شَبِعَ من الشرَابِ ، لم يَستَطِعْ أن يَرفُضَ كأسَ هذا الغلامِ . فتَناوَلها وشَرِبَ ما فيها .

ولما أنزلها من على فمه ، وجدها ملأى كما كانت ، فأعادها إلى فمه مرةً أخرى ، وشرب ما فيها وما كاد يُنزلها حتى عادت ممتلئةً كأنها لم تُمس .

فتعجب الرشيد أشد العجب مما رأى ، وقبل أن يسأل أبا الكاظم عن سرها ، جذب أبو الكاظم الغلام من يده ، وأخرجه من الحجرة .

فتنفس الرشيد مرةً ثانية ، وحمد الله كثيرًا على كذب جعفر .



وبقى الرّشيدُ يومًا كاملاً عِندَ أبي الكاظم كأنّه في حُلمٍ جميلٍ ، وفي آخِرِ النّهار استأذَنَ مِنهُ ، وعاد إلى الخانِ الذى يَنزِلُ فيه .

وما كادَ يصِلُ إلى الخانِ حتى رأَى أمامه عَدداً من الغلمانِ والجوارِى ، وكلٌّ واحِدٍ منهُم يَحمِلُ هَدِيَّةً فاخرة . وبينهُمْ الغلامُ صاحبُ الكأسِ الياقُوتيّةِ ، هُوَ وكأسُه وجارِيةٌ جميلةٌ جِدًّا تحملُ الشَّجَرةَ وقَضِيبَ الذهَبِ . وهُمْ جميعًا في انتِظارِه ليُقَدّمُوا أنفسَهم إليهِ ، هدِيَّةً من أبي الكاظم .

وقَفَ الرّشيدُ مَذهولاً حائرًا مما يَرَى .. تارَةً يفرَحُ بهذه الهدِيَّة النادِرَةِ . وتارةً يتذكَّرُ انتصار جَعفَرٍ عليه فيغضبُ ، وتارةً يقول في نفسِه :

— مِنْ أينَ لأَبى الكاظمِ كلُّ هذا ؟ !

وبَعدَ تفكيرٍ وتردُّدٍ ، قَبِلَ الهديَّةَ ، واستأجرَ عددًا منَ الحجَرِ فى الخانِ وضعَ فيها الجوارىَ والغلمانَ ، ونقلَ الجواهِرَ إلى حُجْرتِهِ الخاصَّةِ ، وعزم فى نَفْسِهِ أن يَعرِفَ كُلَّ شَىْءٍ عنْ أبى الكاظم .

ولم يَمكُثْ فى الخانِ طَويلاً ، بلْ رجعَ إلى دارِ أبى الكاظم فلما رَآه أبُو الكاظم ابْتَسَم فى وجهِهِ ، وأحسنَ استقْبالَه ، وعرَفَ كُلَّ ما يدورُ بنفسِهِ ، وأراد أن يُريحَهُ من تعبِ البحثِ والسُّؤَالِ . فأَخَذه إلى الحجرةِ الأُولَى ، وأجلَسَه على كُرْسىٍّ من الذهبِ ، وجلَسَ هو على السَّجادةِ الصغيرةِ .

وقال له :

— سيِّدِى التاجر ، إن رجُوعَك إلىَّ زادَنى شَرَفًا وسُرُورًا ، ولا بُدَّ أن أُقَدِّمَ لكَ شيئًا جديدًا . ولمَسَ



إن رجوعك إلىّ قد زادنى شرفاً . .

بِيَدِهِ السجادَةَ ، وحَرَّكَ شفتيْهِ بكلماتٍ خفيّةٍ ، فظهَرَتْ في الحالِ صينيةٌ صغيرةٌ عليها فواكهُ شهيّةٌ . وما كاد الرّشيدُ يَمُدُّ يَدَهُ إليها حتى زادتْ حيرَتُه ودهشَتُه ؛ لأنها لَيْسَتْ فَوَاكهَ ، ولكنّها جوَاهِرُ غاليةٌ جدًّا ، في صُورةِ الفواكهِ وشَكْلِها .

ثُم قال للرشيد :

— هل فَهمتَ السِّرَّ يا سيِّدِي التاجرَ ، واسترحتَ الآن .

فأجابه الرّشيدُ :

— كَلاَّ يا سيِّدِي أبا الكاظِم ، إنِّي ما فَهمْتُ شيئًا ، وما وَجَدَتْ نفسِي راحةً . بل زادتْ حيرتي وعجَبي !!

ولَيْسَ كثيرًا على كرمِكَ وفَضْلِك أن تعرّفني كُلَّ شيءٍ بصراحةٍ وصِدْقٍ .

فابتسم أبو الكاظم وقال:
إن نفسي مطمئنة إليك أيها الضيف الكريم، وأشعر أني لا أحتاج إلى إخفاء حقيقتي عليك، ولى قصة طويلة أسمعك إياها باختصار:

— أنا يا سيدى ابن رجل غنى من أغنياء البصرة، وقد توفى والدى بعد ما جمع ثروة طائلة من التجارة والزراعة، ولم يكن له وارث غيرى. وكنت أحب الكرم، ومعاشرة الناس. فصرت أنفق من ثروتى بغير حساب. وصار الناس يلتفون حولى، ويطلبون مساعدتى. وأنا أساعدهم، ولا أبخل عليهم بشىء. وكانت لى خطيبة بنت شريف من أشراف مصر، كنت أرسل إليها الهدايا الممتازة. ولم يمض على إلا وقت قصير

حتى ضاعت ثروتى وكثرت علىَّ الديون . ونظرت فوجدت كلَّ الأصدقاء ، وكلَّ الناس ، قد تركونى وانصرفوا عنّى ، حتى والدُ خطيبتى أنكرنى ونسينى ، وقطع صلته بى .

وهكذا صرتُ بين يوم وليلة فقيرًا وحيدًا . لا يعرفنى أحدٌ ، ولا يعطفُ علىَّ إنسان .

ولكنّى لم أندمْ على الكرم الذى كنتُ أقدمه للناس ، وذهبتُ إلى رجل فى البصرة كان صديق والدى ، وكان دائماً ينصحنى ويحذّرنى عواقب الأسراف ، وشكوتُ إليه حالى . ولم يكنْ له ولدٌ ولا بنتٌ . فعطفَ علىَّ ، واتخذنى ولداً له . وقابلتُ أنا معروفه بأحسن الجزاء وأعظم الإخلاص ، وخدمته أصدق خدمة .

وحينما شعر بدنوّ أجله ، قال لى :

— يا أبا الكاظمِ ، لقد رَأيْتَ بعَيْنَيْكَ أنّ أكثَرَ النَّاس لا وَفَاء لهم ، وأنَّهُم يعْرِفونَكَ حِينما تكُون غَنِيًّا ، ويُنكِرُونَكَ إذا صِرْتَ فقيراً . وأنا يا وَلَدِى ، جَعَلْتُكَ الوارثَ الوحيدَ لى . وعندِى ثرْوَةٌ كبِيرةٌ ، يكْفيكَ منها هذا القَصْرُ ، وتلْكَ المَزرعةُ الواسعَةُ .

ولكن عندى شَيءٌ نافعٌ جدًّا ورِثْته عن أبى ، وَورِثَه أبى عن أبيه وجدِّه . . . هُو هذه السجّادَةُ . (وأشارَ أبُو الكاظم إلى السَّجّادةِ الصغيرةِ التى يجْلِسُ عَلَيْها) فإنها لا ترُدُّ لكَ طلبًا أبدًا ، مهما طلبْتَ منهَا . ولها شرْط واحِدٌ فى إجابةِ طلَبِها هو أن يكونَ ما تطْلبه حَلالاً ، وأن تُنْفِقَهُ فى حلال .

ولما أتَمَّ كلامَه قال لى :

— وقد رَأيْتِنِى يا أبا الكاظِم معَ هذَا الغَنى كنتُ أعيشُ عيشَة متوسِّطَةً ، خوفًا من أن يَتَّهِمَنِى الوالِى

بالغِنَى ، ويفرِضَ علىَّ الخراجَ الكبيرَ . فاقتَدِ بى ، واصنعْ مِثلمَا كُنتُ أصنعُ أنا .

ولم يَمض عليهِ إلا وَقتٌ قصيرٌ ، حتى وَدَّعَ الحياةَ واستقبلَ الآخرةَ بنفسٍ راضيةٍ ، فحزِنتُ لفراقِه أكثرَ مِن حُزنِى على والدِى .

وصَنَعتُ له قبرًا فخمًا . وعشتُ وحدِى فى قَصرِه كما ترانِى الآن يا سَيِّدِى .

فقال الرَّشِيدُ :

— ولكنَّكَ لم تعمَلْ بنصيحةِ هذا الشيخِ ، ولم تترُكِ الإسرافَ .

فقال أبو الكاظم :

— صَدَقتَ يا سَيِّدى التاجرَ . فقد عِشتُ مُدَّةً أعمَلُ بنصائحِه ، ثم رَجَعتُ إلى عادتِى فى الكرَمِ ، وَوَجدتُ السَّجادةَ تُساعِدُنى على كلِّ طلَبٍ أطلُبُه منها كما رأيتَ الآن .

ثم تنفس بحسرةٍ وضيقٍ ، وقال :

— ومعَ ذلك فقدْ صدقَ الشيخ ، وجرتْ عليَّ عادتى هذه متاعبَ طويلةً . فما كادَ خبرُ كرَمى ينتشرُ فى المدينةِ حتى أرسَل إلىّ الوالى يسألُنِى عن مصدَرِ الأموال التى أُنفِقُها . ويتهمُنى بأنّى وجدتُ كنزًا ، ويريدُ أن يُقاسِمَنى فيه . فاتفقتُ معهُ على أن أدفعَ إليهِ كلَّ يومٍ ألفَ دينارٍ فرَضِىَ بذلك .

وبعدَ قليلٍ حضَر إلىّ رئيسُ الشرطةِ ، وأرادَ أن يقبِضَ علىّ ، ويسوقَنِى إلى السجن . إذا لم أُطلعْه على الكنزِ الذى وجدتُه . فاصطلحتُ معَه على أن أُعطِيَه كلَّ يومٍ مائتَىْ دينار . ولكنه رَجُلٌ خائنٌ طمّاعٌ لا يقنعُ ولا يرضَى ؛ ولهذا يُصيبُنِى منه كلَّ يومٍ بلاءٌ جديدٌ .

سَمِعَ الرشيدُ هذه القِصَّةَ العَجيبةَ ، فقال لأبي الكاظم

— الآنَ أَرَحْتَنِي يا أبا الكاظم ، بارَكَ اللهُ لك في رِزْقِكَ ، وأعطاكَ الصحّةَ ، وجعلَك دائماً في خِدمَةِ المُحْتاجين والضيوفِ .

واستأذَنه وعادَ إلى الخانِ . وفي صَباحِ اليومِ التالي جَمَعَ أمتِعتَه وغلمانَه وجوارِيَهُ وهديَّتَهُ ، وسار إلى بغدادَ .

وما كاد يَصِلُ إليها ، حتى ذهب إلى جعفرٍ في سِجْنِه ، وفتح السجنَ بنفسِه . وأخرَجَهُ منه ، واعتذَرَ إليه ، وقال له :

— صدَقْتَ يا جعفرُ في كلِّ ما قلتَه عن أبي الكاظم . والآن أُرِيدُ أن تُفكِّرَ معي في المكافأةِ التي يجبُ أن نكافِئَ بها هذا الرّجلَ الكريمَ .

فَرِح جعفرٌ بِرِضَا الخَليفةِ عنه ، وقَبّل يديهِ . وأَخذَ يُفَكِّرُ فى المكافأةِ اللائقةِ بأَبى الكاظم . ولمّا سمع قِصّتَهُ مع الخَليفة ، قال :

— أَظُنُّ يا مولاى أَنّ خيرَ مكافأةٍ تُقَدِّمُها إليه ، هى أن تأمُرَ بأن يكُونَ واليًا على البَصْرة مكانَ واليها الطمّاع الجشعِ .

فقال الرّشيدُ :

— نعْمَ الرّأْىُ ! نعْمَ الرّأْىُ ! !

— وأمَرَ فى الحالِ بأن يُكتبَ كتابٌ إلى والى البصْرَةِ لِينزِلَ عن الحُكمِ ، هو ورئيسُ الشُرْطَة . ويُوَلِّى أبا الكاظم بدلَه .

وَصَلَ أمرُ الرّشيدِ إلى الوالِى فى البَصْرَةِ ، فكاد قلبهُ يتمَزَّقُ من الحُزنِ والغمّ ، وأرْسَلَ إلى رئيس الشُرْطَةِ ، وأطلعهُ على كتابِ الرّشيدِ . ولكن رَئيسَ

الشَرْطَةِ كان ماكِرًا مُحتالاً ، فطمأنَهُ وطَيَّبَ خاطِرَه .

وذَهَبَ رئيسُ الشَرْطةِ من فَوْرِه إلى دارِ أَبِي الكاظِم كأنه زائرٌ ، فاستقبلهُ أبو الكاظم بحفاوةٍ وترحيبٍ ؛ لأنَّهُ كان دائماً يريدُ أن يتَّقي شرَّه ، ويَتَخلَّصَ من مَصائبِه .

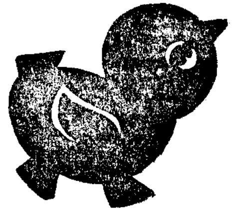
ووُضِعتْ أَمامَهُما أكوابُ الشرابِ ، فأخرَجَ رئيسُ الشَرْطةِ مُخدِّرًا من جيْبِه بخِفَّةٍ واحتراسٍ شديدٍ ، ووضعه فى كُوبِ أبى الكاظم .

وما كادَ أبو الكاظم يَشْرَبُ ما فى كوبه ، حتى أُغْمِيَ عليه وسقط على الأَرْض ، فاقِدَ النُطْق والحركةِ ، فصاحَ رئيسُ الشُرْطةِ وبكى وصَرَخَ ، وتجمَّع جوارى أبي الكاظم وغلمانُه ، وصارُوا يَبْكُون ويَلْطِمُون . ورئيسُ الشُرْطةِ يفعل مِثلهمْ .

ثم أَمرَ رئيسُ الشُرْطةِ بأن يُقامَ لأبى الكاظم مأتمٌ كبيرٌ فخمٌ ، وأن يُدْفَنَ فى مقبرةٍ خاصَّةٍ .

حدثَ كلُّ هذا أمامَ رسول الرّشيد . وكتبَ الوالى يخبرُ الرّشيدَ بكلِّ ما حدثَ ويأسفُ لموتِ أبى الكاظمِ .

ولما رجع الرّسولُ إلى الرّشيدِ ، وقرأ هو وجعفرٌ رسالةَ الوالى ، شكا فى موت أبى الكاظم . وطلبَ الرّشيدُ من جعفرٍ أن يذهبَ فى الحالِ ، ومعه فرقةٌ من الحرسِ ويقبضَ على الوالى ، وعلى رئيسِ الشّرطةِ ، ويعود بهما إلى بغدادَ ، حتى يتمّ التحقيقُ فى موتِ أبى الكاظم .



اما أبو الكاظم ، فقد بقى فى قبره مغشيًّا عليه إلى منتصف الليل . وكان جندىٌّ من جنودِ رئيسِ الشُرْطة قد رآه وهو يُخرج المخدِّر من جيبه ويَضعه فى كوب أبى الكاظم .

فصعبَ على هذا الجندىّ أن يموت هذا الرجلُ الكريمُ ، بالغدر والخيانة . وانتظر حتى انتصف الليلُ وذهبَ إلى القبرِ ، وفتحه وأخرجَ منه أبا الكاظم وقال له :

— لا ترجعْ أيها السيّدُ إلى البصرة ، فإنك لا تستطيعُ أن تقيمَ فيها مرّةً أخرى . واذهبْ من ساعتِك إلى بغداد لأنها مدينةٌ كبيرةٌ ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يعرِفَك فيها وبهذا تنجو من شرِّ الوالى ، وشر رئيسِ شرطتِه .

وصل أبو الكاظم بعدَ أيامٍ إلى مدينة بغدادَ ، وتذكَّر صديقَه التاجرَ البغداديَّ ، وصار يبحث عنه ؛ ليختفِي عنده مدَّةً من الزمان .

وبينما هو يسير في شوارعِ بغدادَ ، وصل إلى قصر الخلافةِ ، وإذا به يجدُ أمامه الغلامَ الذي كانَ يحمل الكأس الياقوتيَّةَ . فعرَف كلٌّ منهما الآخرَ ، وسلَّم الغلامُ عليه ، وجرى إلى الخليفةِ يُخبِرُهُ بأنَّ أبا الكاظِم واقفٌ على الباب .

فقام الخليفةُ بنفسِه ، وأسرع إلى البابِ ، وما كاد يصدِّقُ في أوَّلِ الأمرِ أنه أمامَ أبي الكاظمِ . ثم حضنه وقبَّله ودخل به القصر .

ولمَّا جلسا معًا ، قصَّ عليه أبو الكاظم قِصَّته بعد فراقه واعتذر إليه من تقصيرِه معه ؛ بأنه لم يكن يعلمُ أنَّهُ خليفةُ المسلمين هارونُ الرشيدُ .

فابتسم الرشيدُ في وجهِه ، وطيَّب خاطِرَه ، وأخذَه

وسار به إلى زَوْجتِه العاقلةِ ؛ لِيُعلِمَهَا بوصول أكرم رجلٍ فى رعيّتِه .

وما كاد أبو الكاظِم يرى الجاريةَ التى تجلس مع زوجة الخليفةِ ، حتى اصفرَّ وجهُه ، واضطرب فى كلامِه .

أما الجاريةُ فإنّها وقفت مَذْعورةً مرْتَبِكة . وبعْدَ قَليل عَرف الرشيدُ أنها خَطيبةُ أبى الكاظم المصريَّة . وأن أباها افْتَقَر ، وترك مصر إلى الشام . وفى الطريق هجم عليه اللصوصُ . فأخذوها منه وباعوها فى بَغْداد ؛ فأصبحت وصيفةً لزوجةِ الخليفةِ .



رجع جَعْفَرٌ من البَصْرَةِ ، ومعه الوالى ورَئِيس الشُرْطةِ . فلمّا وقعَ بصرُهما على أبى الـكاظم ، سَقَط الوالى ميِّتًا من الخوْفِ والرُّعْبِ . وأمر الرَّشِيدُ بأَنْ يُقطَع عنُقُ رئيسِ الشرْطةِ . وأَنْ يوَلّى أبو الـكاظم حكْمَ البَصرةِ .

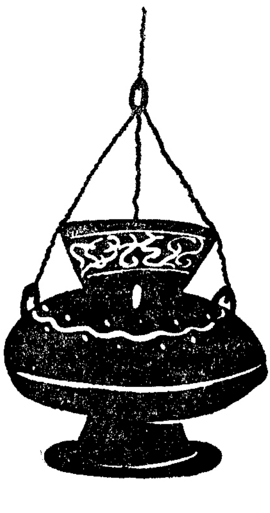
وفى صباحِ اليَوْمِ التالى ، خرجَ الناسُ إلى الميدان ليُشاهدوا مَقتلَ رئيسِ الشُرْطةِ الخائنِ .

ولـكنَّ أَبا الـكاظم قبْل أنْ يتقدّمَ السيّافُ إلى رئيسِ الشُرْطةِ ، تقَدَّمَ هو إلى الرشيدِ ، وقبل يدهُ ، وطلبَ منهُ العَفْوَ عن هذا المجرِمِ .

فرَضىَ الرشيدُ ، وقَبِلَ شفاعَتَهُ وتعجّبَ الناسُ من أخلاقِ أبى الـكاظم الـكريمةِ .

وكذلك طلَبَ أبو الكاظم أنْ تكُونَ ولاية البصرةِ لهذا الجُنديِّ الشُجاعِ الكريم ، الذى نجّاهُ من السجْنِ . فوافقَ الرشيدُ على ذلك .

وأخيراً أُقيمتْ الأفراحُ فى بغْدادَ ، وزُفّتْ إلى أبى الكاظمِ خطِيبَتُه المصريَّةُ ، وأقامَ بها أياماً فى ضيافةِ الرشيدِ وزَوْجَتِه ، ثم رجع إلى البَصْرَةِ ، ليَعيشَ سعيداً بسجَّادَته العَجيبةِ .



قصص الرشيد

١ — الرشيد يتحدث
٢ — مجد البرامكة
٣ — نكبة البرامكة
٤ — الأمويُّ البرىء
٥ — فتح هِرَقْلَةَ
٦ — الجزيرة العائمة
٧ — فى جبال الماس
٨ — صانع السروج
٩ — كتاب لقمان الحكيم
١٠ — ليلة فى ضفاف دجلة
١١ — تاجر البصرة
١٢ — سجادة أَبى الكاظم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة